النَّـــارُ البَـــارِدَةُ

قِصَّةُ نَبِيِّ اللهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
(الجُزْءُ الأَوَّلُ)

كتبتها: لي لي محسن
رسوم: أحمد شوقي



سِلْسِلَةُ الأَنْبِيَاءِ فِي الإِسْلَامِ لِلأَطْفَالِ

منذُ آلافِ السنينَ،
في مدينةٍ بعيدةٍ تُسمَّى بابلَ،
تقعُ في العراقِ، كانَ الناسُ يعبدونَ آلهةً
زائفةً صنَعوها بأنفسِهم.

فبعضُ الناسِ كانوا يعبدونَ الشمسَ،
وبعضُهم كانوا يعبدونَ القمرَ والنجومَ،
بلْ كانَ بعضُهم يعبدونَ آلهةً صنَعُوها
بأنفسِهم من الخشبِ والحجارةِ.



لمِ يكنْ هناكَ تقريبًا مَنْ يؤمنُ بوجودِ
إلهٍ واحدٍ علينا جميعًا
أن نعبدَه!

وكانَ أبو إبراهيمَ -آزرُ- يصطحبُ ولدَه
الصغيرَ إلى المعبدِ كلَّ يومٍ.

فالمعبدُ هو المكانُ الذِي كانَ يتعبدُ فيِهِ الناسُ
لآلهتِهم الوثنيةِ التي صنَعوها من الخشبِ
والحجارةِ.

وتمنَّى آزرُ أنْ يكَبرَ ولدُه إبراهيمُ ذاتَ يومٍ
ليصبحَ كبيرَ كهنةِ المعبدِ.



اعتادَ إبراهيمُ على أنْ يشاهدَ أباهُ آزرَ وهو يصنعُ في البيتِ تماثيلَ غريبةَ الشكلِ ثم يبيعُها إلى قومِه. وكانَ إبراهيمُ معتادًا كذلكَ على أنْ يلعبَ بها ويركبُها وكأنهَا أحصنةٌ لعبةٌ.

وذاتَ يومٍ، سأَل إبراهيمُ آباهُ آزرَ: «ما هذهِ يا أبتِ؟ أهيَ دُميةٌ؟».

ردَّ عليهِ آزرُ بفخرٍ: «إنهُ مردوخُ، كبيرُ الآلهةِ يا بنيَّ».

ووقَع إبراهيمُ في الحيرةِ. فهو لم يستطِعْ أنْ يفهمَ كيفَ يصنعُ الناسُ آلهتَهم بأنفسِهم!



كانَ إبراهيمُ يشاهدُ قومَه وهم يصلونَ في المعبدِ، كانوا ينحنونَ أمامَ الآلهةِ الخشبيةِ والحجريةِ، يبكونَ ويتوسَّلون طلبًا للمساعدةِ. بلْ كانوا كذلكَ يقدِّمونَ الهدايا لتلكَ الأصنامِ، متمنينَ أنْ تحققَ لهم آمالَهم.

في بدايةِ الأمرِ، شعَر إبراهيمُ أنَّ هذا الأمرَ مضحكٌ، لكنْ معَ تدرجِ إبراهيمَ في النموِّ، بدَأ يحسُّ بالغضبِ الشديدِ.

قال إبراهيمُ: «كيفَ يمكنُ لتماثيلَ صنَعها الإنسانُ أنْ تكونَ آلهةً تُعبدُ؟ لا يمكنُ أنْ يكونَ هذا الأمرُ صحيحًا!».



وذاتَ ليلةٍ، غادَر إبراهيمُ بيتَه ومضَى إلى الجبالِ. سارَ إبراهيمُ وحدَه في الظلامِ، متسائلًا عَّمن يكونُ الإلهَ الحقَّ؟

وجَد ابراهيمُ كهفًا، فجلَس فيهِ وحيدًا طَوالَ الليلِ، متكئًا بظهرِه على الحائطِ ناظرًا إلى السماءِ.

قالَ إبراهيمُ عندَما رأَى نجمًا بازغًا في الظلامِ: «هذا ربِّي!».

ثم قالَ عندَما رأَى القمرَ بازغًا: «لا، بلْ هذا ربِّي!».

ثم قالَ إبراهيمُ عندَما أشرَقتِ الشمسُ: «ربمَا يكونُ هذا ربِّي، فهذا أكبرُ!».



لكنَّ النجومَ تبزغُ وتأفُلُ، والقمرَ يبزغُ ويأفلُ، والشمسَ تبزغُ وتأفلُ(*).

قالَ إبراهيمُ: «لِئن لم يهدِنِي ربي لأكونَنَّ من القومِ الضالينَ.»

لكنَّ اللهَ الواحدَ الأحدَ قد وهَب إبراهيمَ الحكمَ والعلمَ. ومنَح اللهُ إبراهيمَ كثيرًا من الإشاراتِ الدالةِ على وجودِ إلهٍ واحدٍ هو اللهُ، ثم اصطفَى(**) إبراهيمَ ليكونَ نبيًّا إلى قومِه.

(*) تبزغُ وتأفلُ: تشرقُ وتغربُ.
(**) اصطفَى: اختارَ.


ا
س
الله

حاوَل إبراهيمُ أنْ يشرحَ لقومِه
كلَّ شيءٍ عنْ وحدانيةِ اللهِ.

قالَ إبراهيمُ: «ما هذهِ التماثيلُ التي
تعبدونَها وتحبونَها كثيرًا؟».

ردَّ قومُ إبراهيمَ: «إنها الآلهةُ التي عبدَها
آباؤُنا وأجدادُنا!».

ردَّ إبراهيمُ: «لقد كانَ آباؤُكم وأجدادُكم
في ضلالٍ مبينٍ. فلا يوجدُ إلهٌ إلا اللهُ الواحدُ!
ربُّ السماواتِ والأرضِ، وهوَ وحدَه
الإلهُ المستحِقُّ للشكرِ والعبادةِ».

لكنَّ كلماتِ إبراهيمَ أغضبَتْ
قومَه بشدةٍ!



كانَ آزرُ – أبو إبراهيمَ - هو أكثرَهم غضبًا!
فآزرُ لم يكنْ فقطْ مؤمنًا بالآلهةِ الحجريةِ،
بلْ كانَ أيضًا يربحُ كثيرًا من المالِ من بيعِ
هذهِ الأصنامِ لقومِه.

سأَل إبراهيمُ أباهُ برقةٍ: «يا أبتِ لم تعبدُ هذهِ
التماثيلَ التي لا تنفعُ ولا تضرُّ؟».

فسألَه آزرُ غاضبًا: «ألا تحترمُني وتحترمُ
آلهتِي يا فتَى؟».

ردَّ إبراهيمُ بحبٍّ: «لا، لا يمكنُني أبدًا ألا
أحترمَكَ يا أبتِ. إنني أحبُّكَ وأريدُ لكَ أنْ تفوزَ
بالجنةِ عندَما تنتهِي حياتُنا على الأرضِ. إننِي
أريدُ أنْ أهديَكَ إلى الطريقِ المستقيمِ».



صاحَ آزرُ بغضبٍ في ابنِه إبراهيمَ:
«لئن(*) لم تتوقَّفْ عن هذا الكلامِ الأحمقِ لأرجمنَّك(**) يا إبراهيمُ! هيا اهجُرني مليًّا(***) قبلَ أنْ ينالَكَ عقابِي!».

ردَّ إبراهيمُ بحزنٍ: «سلامٌ عليكَ يا أبتِ، وليسامِحْكَ اللهُ، إنهُ أرحمُ الراحمينَ».

لكنَّ إبراهيمَ لم ييئس قَطُّ من دعوةِ أبيهِ وقومِه للإيمانِ. ولم يهتم كثيرًا بصياحِهم الغاضبِ في وجهِه ولا حتَّى بأذاهُمْ لهُ. وظلَّ إبراهيمُ يحاولُ ويحاولُ أنْ يخبرَهم بكلِّ ما يعلمُ عن قدرةِ اللهِ، لكنهُ لم يجدْ مَنْ يستمعُ إليه.

قالَ إبراهيمُ في نفسِه: «أعرفُ كيفَ أجعلُهم يبصرونَ الحقيقةَ. جاءَتني أفضلُ فكرةٍ على الإطلاقِ!».

(*) لئن: إذا.
(**) لأرجُمَنك: أُلقِي عليكَ الحجارةَ.
(***) مليًّا: زمنًا طويلًا.



فذاتَ ليلةٍ، كانَ هناكَ حفلٌ سيقامُ على الضفةِ الأخرَى من النهرِ.

كانَ جميعُ مَنْ بالمدينةِ متحمسينَ لحضورِ الحفلِ بمَنْ فيهمْ كهنةُ المعبدِ.

تظاهَر إبراهيمُ بأنهُ مريضٌ، وتخلَّفَ عنْ حضورِ الحفلِ حتَّى تأكَّد أنَّ الجميعَ قد غادَروا. وبعدَ ذلكَ حمَل إبراهيمُ فأسًا حادةً وسارَ في شوارعِ المدينةِ الخاليةِ حتَّى وصَل إلى المعبدِ.

وعندَما دخَل إبراهيمُ المعبدَ، سأَل أحدَ الأصنامِ: «أنتَ، إنَّ الطعامَ أمامَكَ سيبردُ. ألنْ تأكلَ؟» لكنهُ لم يتلقَّ(*) أيةَ إجابةٍ.

قالَ إبراهيمُ ساخرًا من الأصنامِ: «مالَكُمْ؟ ألا يمكنُكم حتَّى مجردُ الكلامِ؟».

(*) يتلقَّ: يَجِدْ



رفَع إبراهيمُ فأسَه وحطَّم جميعَ الأصنامِ
فيمَا عدا أكبرَهم، ثم علَّق فأسَه على كتفِه،
ومضَى عائدًا إلى بيتِه وقد ارتسمَتْ
على وجهِه ابتسامةٌ.

وعندَما رجَع قومُ إبراهيمَ من الحفلِ،
أصابَهم غضبٌ عارمٌ(*)
عندَما رأَوْا آلهتَهم محطمةً
إلى قطعٍ صغيرةٍ على أرضِ المعبدِ،
وتساءَلوا عمَّن فعَل ذلكَ.

(*) عارمٌ: شديدٌ



صاحَ أحدُ المتجمِهرينَ(*) الغاضبيَن:
«سَمِعنا فتًى يذكرُ آلهتَنا بسوءٍ يقالُ له إبراهيمُ. ربمَا هو مَنْ فعَل ذلكَ».

وعندَما ظهَر إبراهيمُ لاحقًا، سأَله قومُه:
«أأنتَ فعَلْتَ هذا بآلهتِنا يا إبراهيمُ؟
هل حطَّمتَ آلهتَنا إلى قطعٍ صغيرةٍ؟».

ردَّ إبراهيمُ مبتسمًا:
«لِمَ لا تسألونَ كبيرَهم هذا الممسكَ بالفأسِ؟
ربمَا هو مَنْ فعَلها!».

(*) المتجمهرينَ: المتجمعين



لكنَّ القومَ لم يكُنْ بإمكانِهم سؤالُ إلِهِهم؛
لأنهُ مجردُ صنمٍ. إنهُ لا ينطِقُ!

فقالَ إبراهيمُ: «إنَّ اللهَ يرسلُ أنبياءَه
وكُتَبه ليعلمَ الناسُ مَنْ هُوَ. واللهُ يسمَعُ
دعاءَنا ويحمِينا. اللهُ محيطٌ بنا».

ثمَّ سألَهم: «ماذا تفعلُ آلهتُكم؟».

صاحَ واحدٌ من قومِه وقد ركِبه الغضبُ:
«اِقبضُوا عليهِ! اِقبضُوا عليهِ واقتلُوه قبلَ أنْ
يبدأَ الجميعُ في الإيمانِ بإلِهِه».

قالَ إبراهيمُ: «لستُ خائفًا منكم.
إن لي ربًّا يحمِيني».



احتفَظ قومُ إبراهيمَ بِهِ مقيدًا بالأغلالِ(*) واتفَقوا فيمَا بينَهم على إلقائه في أكبرِ نارٍ يمكنُهم أنْ يوقِدوها.

وعمِل القومُ لمدةِ أربعةِ أيامٍ على إعدادِ هذه النارِ! فحفَروا حفرةً عميقةً، وملَئوها بالحطبِ، ثم أوقَدوا فيهَا نارًا هائلةً.

وبلَغت ألسنةُ اللهبِ عنانَ السماءِ!

وأسرَع الجميعُ يتراجَعون إلى الخلفِ مبتعدينَ عن وهجِ(**) النارِ الحارقةِ.

صاحَ كبيرُ الكهنةِ: «ألقُوه في الجحيمِ! سيعلِّمُه هذا هو وأتباعَه ألا يسخَروا من آلهتِنا مرةً أخرَى!».

(*) الأغلالُ: القُيودُ
(**) وهجِ: حرارة



لم يُصَبْ إبراهيمُ بأدنَى خوفٍ.
فقد كانَ شابًّا شجاعًا مؤمنًا باللِه
حقَّ الإيمانِ.

وعندَما ألقاهُ قومُه في النارِ،
حدَث أغربُ شيءٍ يمكنُ تخيلُه...

أمَر اللهُ العظيمُ النارَ لتتحوَّلَ من طبيعتِها
الحارقةِ وتصبحَ بردًا وسلامًا!

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى
بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

(سورةُ الأنبياءِ آية 69 الجزءُ 17)



أطاعَتِ النارُ أمرَ اللهِ وصارَتْ باردةً
بدلًا من طبيعتِها الساخنةِ! ياللعجبِ!

جلَس إبراهيمُ داخلَ النارِ مبتسمًا،
وكأنهُ يجلسُ في حديقةٍ غَنَّاءَ(*).

قالَ إبراهيمُ بسرورٍ: «كنتُ أعلمُ أنَّ اللهَ
سينقِذُني. كنتُ أعرِفُ هذا.
لكَ الحمدُ والشكرُ يا أللهُ.
فأنتَ العظيمُ وأنتَ القديرُ».

تجمَّع قومُ إبراهيمَ حولَ النارِ يراقبونَ
ما يحدثُ، وقد اسودَّتْ وجوهُهم من الدخَانِ
وكادَتْ أنفاسُهم أن تنقطعَ من حرارةِ النارِ.

(*) غَنَّاء: كثيرةُ الشجرِ والعشبِ



قالَ قومُ إبراهيمَ: «لابدَّ أنهُ قد تحوَّل الآنَ إلى رمادٍ! فليسَ هناكَ من يمكنُه تحملُ حرارِة تلكَ النارِ المحرقةِ».

لكنَّ ما حدَث هو أنَّ النارَ لم تُحرِقْ سِوى الأغلالِ التي تقيدُ إبراهيمَ. وعندَما خَبَتْ(*) ألسنةُ اللهبِ، سارَ إبراهيمُ خارجًا منها حرًّا من الأغلالِ، سليمًا معافًى وعلى وجهِه ابتسامةٌ واسعةٌ.

صاحَ قومُه: «أمرٌ لا يصدَّقُ! إنَّ إبراهيمَ مازالَ حيًّا! بل هو سعيدٌ مبتسمٌ. إنَّ هذا لأمرٌ مستحيلٌ».

لكنْ كما تعلمونَ، فاللهُ يفعلُ ما يشاءُ. وليسَ هناكَ ما يُعجِزُ اللهَ.

(*) خبَتْ: انطفَأَتْ



أصبَح إبراهيمُ أشهرَ رجلٍ في المدينةِ كلِّها!
وصارَ الجميعُ يتحدَّثونَ عن معجزِة
«النارِ البارِدةِ».

وعندَما سِمع ملكُ البلادِ بما حدَث، وكيفَ أنَّ
إبراهيمَ قد نجَا من النارِ، غَضِب الملكُ غضبًا شديدًا.

صاحَ الملكُ: «الآنَ سيبدأُ قومِي في اتباعِ
إبراهيمَ. سيعبدونَ إلهَ إبراهيمَ بدلًا من أنْ
يعبدوني أنا! إنني لا أرغبُ في ذلكَ. لا أرغبُ
في ذلكَ أبدًا».

انحنَى له حراسُه قائلينَ: «مُرْ تُطَعْ
يا مولانَا الملكَ».

قالَ الملكُ آمرًا: «أحضِروا لي إبراهيمَ، هنا والآنَ».



سألَ الملكُ نبيَّ اللهِ إبراهيمَ عندَما
وصَل إلى قصرِه: «مَنْ هذا الإلهُ الذي
تتحدَّثُ عنهُ يا إبراهيمُ؟».

قالَ إبراهيمُ: «ربُّ السماواتِ والأرضِ،
يُحيي ويميتُ».

فجادَله الملكُ قائلًا: «أنا أُحيي وأميتُ!»
ثم صاحَ مصدرًا أوامرَه: «أيُّها الحراسُ
أحضِروا لِيَ الآنَ رجلينِ! اقتُلوا أحدَهما
ودَعوا الآخرَ على قيدِ الحياةِ!».


47
33

ثم وجَّه الملكُ كلامَه إلى إبراهيمَ
فقالَ متباهيًا: «أرأيتَ يا إبراهيمُ؟
أنا أيضًا أهبُ الحياةَ وأسببُ الموتَ».

قالَ إبراهيمُ: «فإنَّ اللهَ إلهي الواحدَ
يأتِي بالشمسِ من المشرقِ، فلو كنتَ
أنتَ في عظمةِ إلِهي فأتِ بها(*)
من المغربِ!»

يا إلهي! ماذا سيفعَلُ الملكُ الآنَ؟

سنعرفُ باقيَ القصةِ في الجزءِ الثانِي...

معجزاتُ السماء...

(*) فأتِ بها: اجعَلْها تُشرِقُ.